

كتاب الاستشراق

الكتاب : اورينتاليسم (الاستشراق) ORIENTALISM

المؤلف : الدكتور ادورد سعيد استاذ الاداب Edward w. Said

الانجليزية والمقارنة في جامعة كولومبيا

Parr prof of English and comp. Literature, Columbia U
New york, N. Y.

في مدينة نيويورك الولايات ، المتحدة .

الناشر : شركة بانتيون في مدينة نيويورك

Pantheon Books, New York

رقم فهرسة مكتبة الكونغرس

Ds 12 S24 1978 (78 - 51803 / isbn O - 394 - 42814 - 5

★ ★ ★

« حدث العام الادبي . فتح في عالم النقد الرصين والمنهج العلمي الصحيح . كتاب وجبت قراءته على كل طالب وبجائة واستاذ متخصص وأمريكي مثقف » .

هذا بعض ما نقرأ ونسمع عن كتاب الزميل الدكتور ادورد سعيد في الاستشراق والمستشرقين ومدارسهم ودراساتهم ، الغث منها والثلثين .

انه كتاب ضخم ، يقع في ثلاثئة وثمان وستين صفحة من الحجم المتوسط ٦×١/٢ ٩ بوصات « ١٥×١/٢ ٢٣ سم » . وهو يحتوي على اربعة اقسام :

ص ١٠ - ٣١

المقدمة

٣١ - ١١٣

الباب الاول

١١٣ - ٢٠١

الباب الثاني

٢٠١ - ٣٢٩

الباب الثالث

٣٢٩ - ٣٦٨

الخواشي والملاحق

فالمقدمة هي في الواقع عرض منهجي مفصل ، اراد المؤلف ان يكون للقارئ، تعريفاً جغرافياً وحضارياً لموضوع الاستشراق ، مبرز فيه بين وجهتي نظر غريبتين ، اولاهما تعود الى الفكر والعمل الاوروبي ، والثانية الى الفكر والعمل الاميركي في حقل الدراسات المشرقية . فبينما ينظر الفرنسي إلى الشرق بوصفه المنطقة الجغرافية التي وصفها « شاتوبريان » و « نرفال » في رواياتها ، نجد ان الاميركي انما ينظر الى ذات المنطقة ولكن بوصفها المنطقة الجغرافية الواقعة شرقي شبه القارة الهندية . أما مؤلف الكتاب فإنه يعرف موضوع كتبه بأنه الحلقة الاكاديمية ، التي تدرّس فيها مواضيع شرقية ، يعمل ضمن نطاق تخصصها بحثاً وكتاباً متخصصون ، يعتبرون الشرق موضوع تخصصهم الجامعي . ويتابع المؤلف فيؤكد بان الشرق هو في الحقيقة عالم يتألف من « حضارات وامم تقطن المناطق الشرقية (من الكرة الارضية) لهم من طرق المعيشة والعادات والتاريخ واقع هو اعظم بكثير من كل ما يمكن ان يوصفوا به في الغرب (ص ٥) » . ثم يشير الكاتب الى ان الحضارة والتاريخ لا يمكن ان يثغها أو يدرسها علمياً دون الرجوع الى القوى الكامنه فيها ، والتعرف على حدود هذه القوى . فالعلاقة القائمة بين الغرب والشرق كانت ولا تزال علاقات قوى ، أي علاقة تحكم الغرب

بالشرق واستعماره ، على مستوى درجات مختلفة ، وصفها بكل دقة
الكاتب ك . م . بانيكار في كتابه

K. M. Panikkar : Asia and western Dominance. London :
George allen And Unwin, 1959.

هذا ولقد استشرق الشرق لا لكونه اكتشف « شرقياً » من جميع النواحي
الممكن اعتبارها كصورة طبيعية صحيحة له ، لقد اكتشف الشرق
من قبل الانسان الأوروبي في القرن التاسع عشر ، واستشرق لانه
كان من الممكن تعريضه للكينونة وللتصنيع كعالم شرقي . مثل
هذا يُستنتج من وصف الفرنسي « فلوير » للسيدة « كوشوك هانم » ،
الغانية المصرية التي لم تتكلم قط ولم تعبر عن عواطفها أو وجودها
أو تاريخها بل تكلم عنها ومثلها « فلوير » نفسه ، و « فلوير » هذا كان
اجنبياً ، غنياً « بدرجة نسبية » وهذه المواصفات بالذات هي التي
تشكل الواقع التاريخي الذي مكّن « فلوير » من التحدث باسمها
وشرح شرقيتها ... » (ص ٦) .

ويتابع الدكتور سعيد قائلاً انه لا يجب مطلقاً افتراض أن هيكل
الدراسات المشرقية هو مجرد اكاذيب واوهام يمكن ان تُدحض
وينعدم وجودها بمجرد بيان الحقائق عنها . فالمؤلف يعتقد ان الدراسات
المشرقية لها اهمية كبرى كدليل للسيطرة الاوروبية - الاطلنطية على
الشرق ، اهمية هي اكبر بكثير من اهميتها كحقول دراسي أكاديمي .
ان ما يجب ان يعرفه الدارس ويتفهمه تفهماً صحيحاً هو تفاعل
الدراسات المشرقية في المجتمع الغربي وعلاقتها الوثيقة جداً بمؤسساته
الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وايضاً قوة وجودها الرهيبة . فمن
تحصيل الحاصل أن نقول إن أية مجموعة من الافكار التي يمكنها ان

م - ١٣

تحافظ على وجودها دون تغيير ، لكونها غير قابلة للتطور والتحول كمجموعة أحكام ومبادئ - قابلة للتدريس في المعاهد والمناقشة في المؤتمرات العالمية ، وفي الكتب المستعملة في تهيئة الدبلوماسيين والسياسيين ، أي عمل فكري كهذا يبقى دون تغيير منذ عهد الفرنسي « رينان » (حوالي ١٨٤٠ م) الى يومنا هذا ، وفي بلاد كالولايات المتحدة الاميركية ، هو في الواقع عمل نحيف رهيب ، وأشد رهبة بكثير من مجموعة اكاذيب وخرافات تُستخدم كأداة تثقيف وتأهيل موظفين . وعليه فإن الاستشراق ليس مجرد وهم أوروبي عن الشرق . إنه مجموعة نظريات وأساليب ومبادئ وضعت منذ اجيال كثيرة سلفت . لقد كلّفت الكثير من المال ووظفت ثروات كبيرة في استثمار الاستشراق لهدف استعمار الشرق .

هذا هو اذاً هيكل الاستشراق او دراسات الشرق او المشرق ، الذي يعالجه المؤلف شارحا نقائصه ومساويء استعماله الأكاديمي في الغرب . وكما سبق وذكرنا ، يستعمل الكاتب في بحثه وتحليله نظريات نقدية حديثة ، ومنهجاً اجتماعياً - اقتصادياً - سياسياً - ادبياً - تاريخياً ، معتمداً كثيراً على نظريات غرامسكي وسواه من بناء صرح النقد الحديث . ويختتم الكاتب مقدمته بتحديد موضوع بحثه تحديداً منطقياً لا يقبل الكثير من الجدل .

هذا انكتاب القيم حافل بوقائع تاريخية وأدبية حللها المؤلف مظهرأ تزمتم الغرب ومستشريقيه ، فألقى على اعمالهم أضواء تنير السبيل امام الدارس وتمكنه من معرفة الرخيص من اعمال الدعاية ، والظالم من ترهات اعداء الحضارات غير الاوروبية ، كما تمكنه من التعرف الى أساليب الاستشراق ومنطقاتها . والحق يقال ان عرضاً نقدياً

تكل ما جاء في هذا الكتاب القيم من تحليل ونظريات واستنتاج لا يتسع له هذا المقام ، وانه لامناص المثقف العربي من اقتناء هذا الكتاب ودراسته بكل تودة وتأن . وقبل أن ابداً بعرض موجز لخلفية هذا العمل النقدي العلمي اود ان اشير الى شئولتين اعتبرهما صرختين في واد ، اولاهما مقال قصير جدا نشر في مجلة « الآداب » البيروتية ، السنة ٢٢ ، العدد ٦ ، حزيران ١٩٧٤ ، يقلم الدكتور ابراهيم ابو لغد ، شكا فيه الكاتب من سيطرة الصهيونية الأمريكية على الدراسات العربية (ص ٥ - ٦) والآخرى بحث قيم قدمه الدكتور هارتموت فاهندريخ في مؤتمر الدراسات العربية في غوتنغن ، المانيا الغربية ، ونشر في سلسلة دراسات المجمع العلمي في غوتنغن ،

Akten des VII. Kongresses Für arabistik und islamwissenschaft, herausgegeben von Albert Dietrich.

Abhandlungen Der akademie der wissenschaften in Göttingen. Göttingen. Vandenhoeckund Ruprecht.1976-Hartmut Fährdrich, Historical perspective in noldeke's orientalische Skizzen (1892) ., pp. 146 - 154

أشار فيه الى ترمت شيخ المستشرقين الألمان في القرن التاسع عشر ومنطلع القرن العشرين ، « تيودور نولدكه » . وإنما أشير الى هذين العملين الأدبيين لالكونها مرجعين او مصدرين من مراجع البحث ولكن لما يقتضيه البحث العلمي من امانة تحقيق .

اما كتاب الدكتور ادورد سعيد فيمكن القول ، وبكل اختصار ، بأنه عمل علمي يعرض آراء الاستشراق في الشرق محلاً ويفنلها ناقداً ، ويستنتج منها خطأ تقسيم المجتمع الانساني وعاداته وتقاليدده الى قسمين ، غربي وشرقي ، مشيراً الى ان هذا التقسيم

هو من انتاج الفكر الغربي وتخطيطه للحطّ من قيم الانسان الشرقي وفلسفة وجوده ، وذلك كمقدمة لاستعمار الشرق من قبل الغرب الطموح الطامع . فالغرب يتحدث منذ قرون عديدة عن الصوفية الشرقية ، والثراء الشرقي ، ودروشة الشرق ، وعقلية الشرق ، وانغماس الشرق في ملذاته المادية ، وما الى ذلك من ترهات كان لها الاثر الحاسم في تصوّر الغرب للشرق بأنه منطقة غريبة ساحرة ، غير متمدنة ، ولكن غنية ، لا بأس من الاستيلاء على ثرواتها « وتمدينها » فتصبح صورة مقزّمة عن الغرب « المتمدن » ، وطبيعي أن يكون للترمت الديني الغربي أثر فعال في وضع الدين الاسلامي في وسط الدائرة ، وجعله موضوع تحليل وتقدّر عنيفين ، مما ادى الى الاستنتاج الخاطيء بان الدين الاسلامي مسؤول عن العقلية الشرقية ، والدروشة الشرقية الاسلامية الخ . وسبب هذا التشويش الفكري هو ان الدين الاسلامي والحضارة العربية شكلا في القرون الوسطى خطراً كبيراً على دين الغرب وحضارته . هذا الدين الحثيف لم يخضع في يوم من الايام لسيطرة الغرب وعنصريته ، ولذلك اصبح في نظر المستشرقين مصدر قوة الحضارة العربية - الشرقية وملهمها . من هذا المنطلق بدأ الغرب يدرس « الاسلام » دراسته التحليلية المعروفة بخصبها وسوء منهجها وغاياتها . ومن هنا استنتج الاستشراق ان طريق التعرف على شعوب الشرق لا تتم إلا عن طريق التعرف « بالاسلام » . وكذلك أمر السيطرة على المشرق ، فقد قرر المستشرقون انها هي أيضاً لا يمكن ان تتم دون « الاستيلاء » على « الاسلام » .

ويفند الكاتب موقف الغرب المسيحي من الاسلام ونبية تفنيدها يظهر بوضوح جهل الاستشراق وظلمه وعجرفته . هذا الجهل هو الذي

أدّى بالاستشراق الى الاعتقاد بان علي كاهله تقع مهمة « تمدن » الاسلام والشرق المسلم . ويقول الكاتب ان كارل ماركس نفسه لم يكن معصوماً عن الوقوع في خطأ نظريات الاستشراق هذه . كما يشير الكاتب الى أن الاستشراق ، وهو غير قابل للتطور والتحرر من تزمته وعنصريته ، ما زال حتى في ايامنا هذه مصدراً للمعلومات الخاطئة عن الشرق والشرقيين . فهو يشير الى تقرير كتبه عام ١٩٦٧ الدكتور « مرو برجر » استاذ العلوم الاجتماعية في جامعة برنستون الاميركية ، ورئيس جمعية الدراسات الشرقية وشمال افريقية في امريكا وكندا يقول فيه بأن منطقة الشرق الاوسط وشمال افريقيا ليست المنطقة التي تشكل مركزاً ثقافياً ذا قيمة أو أهمية ، وان ليس هنالك ما يدل على انها سوف تشكل مركزاً ثقافياً في المستقبل القريب . ولذا فان دراسة لغات هذه المنطقة لا يمكن ان تجدي نفعاً على دارسيها بالنسبة للحضارة الانسانية الحديثة ... وتابع الدكتور « مرو برجر » يقول بأن منطقة الشرق الاوسط « لا تشكل مركز قوة سياسية ، وأن ليس هنالك ما يشير الى انها ستصبح قوة سياسية ذات أهمية » (كذا) .. هذه المعلومات الخاطئة عن الشرق والشرقيين لها أثرها في جميع مرافق الفكر الغربي . إنها تنطلق من كتب التاريخ التي تُدرّس في ثانويات امريكا حيث يتعلم الطالب ان الاسلام « أسسه تاجر عربي غني اسمه محمد قال بأنه نبي فتبعه قوم من العرب وغير العرب كان يقول لهم انهم انتخبوا من قبل السماء لحكم العالم » (كذا) ... وإذاً ، فإن الاستشراق ومهمته التعليمية يحملان قسطاً كبيراً من مسؤولية تخدير الخلق الغربي فلا يتأثر بتشريد شعب فلسطين ولا

بمظاهر شاه ايران لشعب ايران بل ينظر ان هذه المآسي و كانت نتيجة طبيعية لعملية تصنيع وتمدين « الشرق و الشرقين » .

على أن الكاتب لا يترك على جميع المستشرقين بالظلم والجهل . هنالك من المستشرقين من حصل على معرفة صحيحة بالشرق فوصفه وصفاً موضوعياً لا بأس به بل هنالك من المستشرقين من أدى خدمات معتزلاً بها للعلم والمعرفة .

ويستخلص المؤلف من بحثه أن الدين الاسلامي المعروف في الغرب بالاسلام هو شيء و الدول الشرقية شيء آخر . فكما أنه لا يجوز لنا كباحثة منصفين القول بأن المسيحية مسؤولة عن مساويء حكم الجزائر التثليليين ، لا يجوز أن نقول بأن الاسلام هو مرآة مساويء و مصدر مآسي الشرق و الشرقين . ف لاسلام ، وهو دين سماوي مقدس ، هو مصدر الغذاء الروحي للمسلمين . هؤلاء يعيشون في عالمنا هذا لا في « الاسلام » وعليه فإن معرفة الاسلام و المسلمين تفرض على العارف معرفة العالم الذي يعيش ضمن نطاقه انسلم وغير المسلم ؛ فالمسلمون هم اعضاء في المجتمع الانساني كسواهم من اؤمنين بالأديان الأخرى ، انهم أعضاء صالحو منتجون في المجتمع الانساني الذي يشكل الاسلام جزءاً منه .

حيا الله الدكتور ادورد سعيد وأمثاله من سفراء الحضارة العربية

في الغرب .

خليل ا . ح . نعمان

استاذ في قسم الدراسات الكلاسيكية و الشرق أوسطية.

في جامعة ولاية نيويورك في بيفتن